

بين الوعي ومراجعة الأفكار

عندما تُطلق عبارة «متأخر عن غيره» على شخص، يُقصد بها غالبًا أنه أقل تقدمًا في جانب معين، سواء من الناحية المالية، أو التعليمية، أو الفكرية.

غير أن التأخر، في حقيقته، لا يُقاس بما يملكه الإنسان من مال، ولا بما يحمله من شهادات، وإنما بمدى وعيه، وقدرته على مراجعة أفكاره، والتعلم، والإسهام في إعمار الحياة. فالتأخر هو حالة يتوقف فيها نمو الوعي، ويستسلم فيها الإنسان للجمود، فيقل تفاعله مع ما ينفع الإنسان والمجتمع. أما التقدم فهو تنمية الوعي باستمرار، وجعل المعرفة والتجربة وسيلة للإصلاح والارتقاء.

ولا أقصد هنا التصنيف إلى فئتين منفصلتين؛ فقد يكون الإنسان متأخرًا ماديًا لكنه متقدم فكريًا، وقد يحدث العكس. وإنما المقصود هو الحديث عن الوعي في مقابل التمسك بالأفكار دون مراجعتها، أيًا كان المجال الذي يظهر فيه ذلك.

وقد يجد بعض الأشخاص صعوبة في تقبل الأفكار الجديدة عندما تتعارض مع ما اعتادوه، فتقف هذه القناعة عائقًا أمام التطور. أما أصحاب الوعي فهم الذين يفتحون عقولهم للمعرفة، ويجعلون من التفكير والنقد وسيلة لفهم الواقع وتحسينه. وهناك تحديات قد يواجه كل شخص يسعى إلى طرح فكرة جديدة في مجتمع لم يعتدها؛ إذ قد يرى أمورًا يعتقد أنها تستحق الطرح، بينما يحتاج الآخرون إلى وقت أطول لتقبلها أو مناقشتها.

لذلك، فإن أمامه خيارات عدة: أن يواصل طرح أفكاره بالحكمة والصبر، أو أن يتدرج في عرضها بما يساعد على استيعابها، أو أن يؤجلها حتى تنهأ الظروف المناسبة. وبعد هذه المقدمة، تلوح في سماء الفكر أسئلة عديدة، من أبرزها: هل الجمود حالة ملازمة للإنسان أم هو اختيار؟ أو، بمعنى أدق، هل يولد الإنسان محدود الوعي، أم أن الجمود يُكتسب من البيئة والتربية؟ بلا شك، يولد الإنسان خاليًا من المعرفة والخبرة، ثم ينمو وعيه من خلال البيئة التي يعيش فيها، والتعليم الذي يتلقاه، والتجارب التي يمر بها. وتتراكم هذه العوامل لتصنع منه إنسانًا أكثر وعيًا وإدراكًا، مع أن أثرها يختلف من شخص إلى آخر بحسب ظروفه واستعداده للتعلم. ومن أبرز هذه العوامل الأسرة والتعليم؛ فإذا كانت الأسرة واعية، وكان التعليم ناضجًا، انعكس ذلك على الفرد، وكذلك الخطابات

بالعقل، وتفتح له آفاقًا جديدة، وتشجعه على التفكير المستقل وتوسيع آفاقه.

وكما أسلفت، فإن بعض القناعات الراسخة قد تعيق تطور الوعي. ومن أبرزها الاعتقاد بأن وجهة النظر لا تحتمل المراجعة أو الإضافة؛ فهذا التصور قد يحول دون مراجعة الأفكار أو تطويرها، فيبقى الإنسان متمسكًا بما اعتاده، دون أن يفسح المجال لاحتمالات أخرى أو تجارب جديدة. ولذلك، عندما يظهر شخص يحمل وجهة نظر مختلفة، فقد يواجه شيئًا من التحفظ أو التشكيك، بدلًا من مناقشة أفكاره بهدوء وموضوعية. وهذه ليست حالة استثنائية، بل ظاهرة تكررت في محطات مختلفة من التاريخ؛ إذ إن كثيرًا من الأفكار الجديدة احتاجت إلى وقت قبل أن تجد قبولًا أوسع. وما أريد الخلوص إليه هو أن التقدم يتمثل في نمو الوعي، والقدرة على مراجعة الأفكار، والاستفادة من التجارب، وتسخير المعرفة في إعمار الأرض، وصيانة كرامة الإنسان، وتحقيق الصالح العام.